

أدب الاستمتاع



هناك نوع من الأدب يكتب لمجرد التسلية البحتة، مثل الحوادث المثيرة التي لا تحفي وراءها هدفاً بعينه سوى الإثارة والاستمتاع والتسلية، ومثل المواقف الحرجة التي تبعث على الضحك أو الاستغرار فيه، ومثل بعض السخريات والمواضف الملفتة للنظر، يبدو هذا في بعض القصص البوليسية وفي الملهاة (المسرحيات الكوميدية)، وكذلك كثير من الشعر الساخر الصاحد أو الماجن.

فما موقف الأديب المسلم من هذا كلام؟

إنَّ أمَّا حِكْمَة النَّبِيِّ الْمُشْهُورَةُ:

روَّحَا عَنْ قُلُوبَكُمْ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ * * * * إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا كَلَّتْ عَمِيتَ

الْحَيَاةَ لَيْسَ هَذِلًا صَرْفًا، وَلَا جَدًا صَرْفًا، وَإِنَّمَا هِيَ مُزِيجٌ بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ، وَالتَّسْلِيَةِ وَالْمَزَاجِ مِنْ حَقٍّ كُلَّ إِنْسَانٍ أَنْ يَرْتَوِي بِهِمَا.

"كان رسول الله (ص) يمنح ولا يقول إلا حقاً".

فليكن هذا اللون من الأدب طرفاً من أطرافه، وجزء من كلّ، فلا مانع أن يشمل أدبنا ألوان المأساة والملهاة، وأن يضحك ويبكي، وأن يكتب بعض أدباءنا ذوي الموهبة هذا اللون الفكه والمسلبي من الأدب، لكن هناك بعض أمور يجب إدراكتها.

لا مانع من الأدب الساخر، لكننا نشترط في الأدب الساخر العفة وعدم الإفحاش في القول، نمزح ولا نقول إلا حقاً، وليس هذا تزمناً أو ضيق أفق مذماً، لأنّ الأدب الساخر في العالم لم ينل مكانته السامية على يد (برنارد شو) و(إبسن) وغيرهما، إلا لأنّ سخرياتهم كانت تنصب على أوضاع فاسدة في المجتمع وتحمل حملة شعواء قاسية على القيم والتقاليد الزائفة.. كانت سخرياتهم تعالج قضايا كبيرة عالمية أو محلية، وكانت هذه السخريات تهزّ الجماهير هزاً عنيفاً، كانت تنتزع الإعجاب والضحك، لكنّها في نفس الوقت كانت تحرّر قلب الأوضاع المتعفنة، وتحطم قلّاع الجمود والرجعية والكربلاء الفارغة، وتحمل على النزوات الفاسدة التافهة، وتحاول أن تقييم المجتمع على أساس نظيفة واقعية.

سخرية تحمل في طيّاتها أخطر القضايا وأكبر الموضوعات.

سخرية طاھرها الابتسام والضحكة وباطنها الألم والدموع والثورة.

إنّ السخرية العميق المؤثرة هي التي نريد، لأنّ منطق الحياة الحديثة، وارتفاع مستوى الوعي الجماهيري وضع الأديب في موضع حرج، إنّ وراء كلماته الساخرة معنى، وهذا المعنى يجب أن يكون أكبر من السخرية نفسها، لأنّ السخرية السطحية لا تروي طماً العقول المتفتحة الواقعية في عالمنا الجديد.

هذه النّظرية تقرّ بنا جدّاً إلى مستوى الفهم الإسلامي للأدب وتجعل ثقتنا به أجيلاً وأعظم.

أمّا الأحداث المثيرة - مجرد الأحداث - التي لا تنطوي على مضمون فكرية معينة، فهي في نظري لا تعود عن كونها نزهة على شاطئ نهر، أو استمتاع بمنظر حوض من الزهور، أو تطلع إلى السماء الزرقاء التي توسيعها السحب البيضاء النظيفة، كلّها أشياء تروي النفس بأحساس جمالية مرحة قد لا يكون للمرة غنى عنها، وإن لم تشبع العقول الجائعة إلى لون من ألوان المعرفة.

ولا يمكن أن نترك هذا الأمر على عواهنه، إنّ الجندي الذي يحمل سلاحه استعداداً لمعركة حربية مقبلة إذا ما تناهى واجبه وظل يحملق في النهر والسماء والورد ساعة.. ثمّ ساعتين سوف يدهمه العدو وينتهي أمره، لكن في الإمكان أن يستمتع بها للحظات، ثمّ ينصرف إلى واجبه، لهذا فإنّ إشاعة هذا اللون من الأدب والاستغراب فيه، أو الإنكباب عليه، والاهتمام به دون سواه ضرب من البلاهة والعته، وخروج على طبائع الأشياء.

لنختل له حيزاً يليق به في عالم الفنون والأداب ولنترك للألوان الأخرى مساحة كبرى تليق بعمق رسالتها، وعظم دورها في الحياة الصافية الملائمة بشتى أنواع المصاعب.

أمّا أصحاب نظرية "الفن للفن" الذين يحكمون على الفنانين من طاھرها وأشكالها الفنية، دون التقيد بمضامين معينة، ويكتفون بأن يكون الإنتاج فناً فحسب، أصحاب هذه النّظرية يرفضون أخلاقية الفن، ونحن لا نقرّهم على زعمهم، فقد أسلفنا أن نظرة ديننا إلى الأدب تؤكد فاعليته وإيجابيته، وأنّ المسلم محاسب على كلّ قول أو فعل يصدر عنه، لكنّنا في نفس الوقت نستطيع أن نذهب عن عقولهم مخاوفهم التي تدعيمهم من جراء الأشكال الفنية، فهم يعتقدون أنّ الالتزام قد يشوّه الأشكال الفنية، وبالتالي سيصبح الإنتاج شيئاً غير الفن، ونحن معهم في أنّ الشكل الفني يجب أن يظل محفوظاً عليه، فلا فن بدون شكل معين، المضمون وحده لا يقوم كعمل فني، هذا مؤكد، فقد يكتب أحدهم مسرحية ثرية المضمون، قوية المعنى، نبيلة الغاية، لكنّها مهلهلة البناء، شأنة الحوار، لا عميق في تصوير شخصياتها، ولا حياة في حركتها المسرحية، مثل هذه المسرحية لا تعدّ فناً على الإطلاق، بل هي مجموعة من الخواطر والآراء أو المبادئ قذفوا بها على قارعة الطريق.

والإسلام لم يضع لنا أشكالاً فنية معينة، ولم يربطنا بناء فنّي خاص نسير على منواله، لأنّ القرآن ليس كتاباً في علم "الاستطيقا" - الجمال - وإنّما ارتباطنا بالإسلام هو ارتباط بالمثل والمبادئ التي أنزلها الله، وجعلها مصدراً نصدر عنه، ونتمثل معانيه، ثمّ حاول - جادين - الحفاظ على الأشكال الفنية والمساهمة في إنماءها واكتمالها وتطويرها مثل غيرنا من أدباء العالم.

بهذا يمكننا أن ندع مذهب "الفن للفن" وقد كفلنا لأنفسنا في أدبنا الإسلامي كل "الضمادات التي تجعل الفن فناً".

المصدر: كتاب الإسلامية والمذاهب الأدبية